وَهِيَ مَعَهُمْ فِي السَّفِينَةِ» (تك ٦: ١٧). وَهٰذَا مَا حَدَثَ بِالْفِعْلِ. فَقَدْ هَلَكَ كُلُّ مَنْ كَانَ خَارِجَ السَّفِينَةِ، وَنَجَا كُلُّ مَنْ كَانَ فِيهَا. وَهٰذَا مَا يَحْدُثُ أَيْضًا فِي الْمَعْمُودِيَّةِ. فَكُلُّ مَنْ يَعْتَمِدُ يَدْخُلُ فِي الْكَنِيسَةِ، وَيَنَالُ الْخَلَاصَ. وَكُلُّ مَنْ لَا يَعْتَمِدُ يَهْلِكُ. وَلِهٰذَا السَّبَبِ نَفْسِهِ نَرَى أَنَّ الْمَعْمُودِيَّةَ ضَرُورِيَّةٌ لِلْخَلَاصِ. وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْلُصَ أَحَدٌ بِدُونِهَا. وَهٰذَا مَا يُعَلِّمُهُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ، وَتُعَلِّمُهُ الْكَنِيسَةُ الْمُقَدَّسَةُ. وَهٰذَا مَا يُعَلِّمُهُ الْقِدِّيسُ بُولُسُ الرَّسُولُ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى أَهْلِ رُومِيَةَ: «أَمْ تَجْهَلُونَ أَنَّ كُلَّ الَّذِينَ اعْتَمَدُوا لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ اعْتَمَدُوا لِمَوْتِهِ؟ فَدُفِنَّا مَعَهُ بِالْمَعْمُودِيَّةِ لِلْمَوْتِ، حَتَّى كَمَا أُقِيمَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ بِمَجْدِ الآبِ، هٰكَذَا نَحْنُ أَيْضًا نَسْلُكُ فِي جِدَّةِ الْحَيَاةِ» (رو ٦: ٣-٤).

وَلَكِنَّ هُنَاكَ سُؤَالًا يَطْرَحُ نَفْسَهُ هُنَا. فَإِذَا كَانَ الْخَلَاصُ مُتَوَقِّفًا عَلَى الْمَعْمُودِيَّةِ، فَمَاذَا عَنِ الَّذِينَ لَمْ يَعْتَمِدُوا؟ هَلْ هُمْ هَالِكُونَ؟ وَهٰذَا سُؤَالٌ مُهِمٌّ جِدًّا. وَلِلْإِجَابَةِ عَلَيْهِ نَقُولُ إِنَّ الْمَعْمُودِيَّةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ طَقْسٍ خَارِجِيٍّ، بَلْ هِيَ وِلَادَةٌ جَدِيدَةٌ. وَهِيَ تَجْدِيدٌ لِلنَّفْسِ. وَهِيَ شَرِكَةٌ فِي مَوْتِ الْمَسِيحِ وَقِيَامَتِهِ. وَهِيَ عَمَلُ نِعْمَةٍ. وَلِهٰذَا فَإِنَّ الَّذِينَ يَمُوتُونَ قَبْلَ أَنْ يَعْتَمِدُوا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَرْغَبُونَ فِي الْمَعْمُودِيَّةِ، وَلَوْ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ نَوَالِهَا بِسَبَبِ ظُرُوفٍ خَارِجَةٍ عَنْ إِرَادَتِهِمْ، فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُهُمْ. وَهٰذَا مَا نُسَمِّيهِ «مَعْمُودِيَّةَ الرَّغْبَةِ». وَهُنَاكَ أَيْضًا «مَعْمُودِيَّةُ الدَّمِ»، وَهِيَ اسْتِشْهَادُ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ مِنْ أَجْلِ الْمَسِيحِ قَبْلَ أَنْ يَعْتَمِدُوا. وَهٰذَا مَا حَدَثَ لِكَثِيرِينَ فِي الْعُصُورِ الْمُبَكِّرَةِ. وَهٰذَا مَا يَحْدُثُ الْآنَ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ. وَهٰذَا مَا يُعَلِّمُهُ الْقِدِّيسُ أَغُسْطِينُوسُ. وَهٰذَا مَا يُعَلِّمُهُ الْقِدِّيسُ كِبْرِيَانُوسُ. وَهٰذَا مَا يُعَلِّمُهُ الْقِدِّيسُ أَمْبْرُوسِيُوسُ. وَهٰذَا مَا يُعَلِّمُهُ الْقِدِّيسُ يُوحَنَّا ذَهَبِيُّ الْفَمِ. وَهٰذَا مَا يُعَلِّمُهُ الْقِدِّيسُ غِرِيغُورِيُوسُ النَّزِينْزِيُّ. وَهٰذَا مَا يُعَلِّمُهُ الْقِدِّيسُ بَاسِيلِيُوسُ الْكَبِيرُ. وَهٰذَا مَا يُعَلِّمُهُ الْقِدِّيسُ أَثَنَاسِيُوسُ. وَهٰذَا مَا يُعَلِّمُهُ الْقِدِّيسُ إِيرِينَاوُسُ. وَهٰذَا مَا يُعَلِّمُهُ الْقِدِّيسُ يُوسْتِينُوسُ الشَّهِيدُ. وَهٰذَا مَا يُعَلِّمُهُ الْقِدِّيسُ تِرْتُلِيَانُوسُ. وَهٰذَا مَا يُعَلِّمُهُ الْقِدِّيسُ هِيبُولِيتُوسُ. وَهٰذَا مَا يُعَلِّمُهُ الْقِدِّيسُ أُورِيجَانُوسُ. وَهٰذَا مَا يُعَلِّمُهُ الْقِدِّيسُ كِيرِلُّسُ الْأُورُشَلِيمِيُّ. وَهٰذَا مَا يُعَلِّمُهُ الْقِدِّيسُ أَبِيفَانِي